الفصل الأول

مدخل عام في النظرية الاجتماعية

1 ـ علاقة العلم بتكوين النظرية.

2 ـ مفهوم النظرية الاجتماعيّة.

3 ـ بناء النظرية الاجتماعية.

4 ـ أهداف ووظائف النظرية في علم الاجتماع.

5 ـ خلاصة ونتائج.

1 ـ علاقة العلم بتكوين النظريّة

من الصعب تناول النظرية وتكوينها دون تناول المعرفة الإنسانية المتجسدة بالعلم ونسقه ومنهجه، فهو يمثل مرحلة مهمة شديدة التميز والتوهج من مراحل تطور المعرفة والعقل والحضارة.

وتاريخ العلم هو تاريخ العقل الإنساني، وتاريخ المناهج وأساليب الاستدلال وطرق حل المشكلات، مثلما هو تاريخ تنامي البيئة المعرفية وحدودها ومسلماتها، وتاريخ تطور موقف الإنسان بإمكاناته العقلية من الطبيعة والعلم، وبالتالي فهو أخطر ظواهر الحضارة الإنسانية وأكثرها تمثيلاً إيجابياً لحضور الإنسان في هذا الكون. وهو «المعرفة المنظمة بظاهرات الكون التي تم التوصل إليها وصياغتها باستخدام أسلوب أو منهج معين هو المنهج العلمي، وهي ذات طبيعة تراكميّة تمكن الإنسان من التعامل بكفاءة مع البيئة والطبيعة»[1].

ويحدّد روبرت ميرتون نقاطاً جوهريّة للدلالة على مصطلح العلم وهي[2]:

1 ـ مجموعة من الطرق التي تتكرّر بقصد التثبيت من المعرفة.

2 ـ مخزون من المعرفة المتراكمة المستخلصة من تطبيق هذه الطرق.

---

(1) د. علي ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة ـ دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، الطبعة الثالثة (القاهرة: دار المعارف، 1983) ص 29.

(2) Robert K. Merton: Science, Technology, and society in seventeenth - Century, England, reprint. New York: Harper and Row - (1938 1970), p. 268.

3 ـ مجموعة من القيم والأعراف الثقافية التي تضبط الأنشطة، وتوصف بأنها أنشطة علميّة.

4 ـ جميع المعاني السابقة.

ويمكن النظر إلى تاريخ العلم كعملية متصلة رغم خصوصية مراحل التفكير الإنساني، وخصوصية المعرفة وأهدافها، فالحضارة الإنسانية «عملية مستمرة ومتصلة، وإذا كانت هناك فترات انتقالية للمظاهر الحضارية الكبرى، فإن هذه الفترات ليست حدوداً فاصلة بين مراحل متمايزة كل التمايز بقدر ما هي حالات من التغير المتسارع التي تمهد لظهور حلقات حضارية جديدة ضمن تلك العملية الواحدة المتصلة، وإن الحلقات الجديدة إنما تقوم وتنبعث من الأوضاع والأحوال التي سبقتها في الوجود»[1].

مراحل العلم

المرحلة الأولى: البدائية، فإذا كانت بداية العلم، كما اتفق غالبية مؤرخي العلم، تبدأ منذ العصر الحجري، فإن البعض يذهب ببدايات العلم إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث يكون العلم أقدم عهداً وأسبق في الوجود من الإنسان، وهذا ما يعبر عنه جـ. جـ كراوثر الذي يعد من أهم مؤرخي العلم في القرن العشرين «فالجهد الذي بذله أسلافنا الأوائل للتنسيق بين أفعالهم البصرية وحركات أيديهم، والذي هو نوع من النشاط العلمي التجريبي، وإن كان في صورة بدائية، كان أحد أسباب نمو المخ، والذي عن طريقه تحول الإنسان تدريجياً من الحيوانية إلى الإنسانية ـ إذن العلم ـ بمعنى العلم، أقدم من الإنسان»[2].

---

(1) د. أحمد أبو زيد، الحضارة بين علماء الأنثروبولوجيا والأركيولوجيا، مجلة عالم الفكر، المجلد 15، العدد 3، أكتوبر ـ ديسمبر 1984. ص 639.

(2) جـ. جـ كراوثر، قصة العلم، ترجمة يمنى طريف الخولي ود. بدوي عبد الفتاح (القاهرة: لمجلس الأعلى للثقافة 1988)، ص 17.

ومهما يكن من تفسيرات حول البداية الحقيقيّة للعلم، فإن الأنثروبولوجيين كان لهم السبق في تعميق الفكرة المعرفية التي تعتقد بأن المعرفة بدأت قبل التاريخ، أو في بداية الإنسان في العالم. كما تبرز ريادتهم في تأسيسهم لتاريخ العلم من حيث هو سجل موثق لتطور العقل الإنساني، وتأكيدهم على الوظيفة الاجتماعية للعلم، أيّ إعتبار العلم فعالية إنسانية تنبع من استجابة الإنسان لتحديات البيئة ثم العوامل الاجتماعية.

المرحلة الثانية: العلم في عصر الحضارات القديمة. حيث كان العقل الإنساني يتفاعل مع كل مرحلة ويستوعب متطلباتها، ويعكس نمط الحياة السائدة آنذاك. مما أدى إلى اختلاف في أساليب التفكير، وأسلوب إنتاجهم وطريقة حياتهم. ويمكن القول إن المعرفة بدأت تتأثر بمراحل مسيرة المجتمعات إبتداءً بفترة الشرق القديم متمثلة في حضارات الهند وقدماء الصين والمصريين والعرب قبل الإسلام (حضارة بلاد الرافدين في العراق وحضارة اليمن القديمة)، وانتهاء بالحضارة اليونانية والرومانية والإسلامية، حيث بدأت البيئة السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية تؤثر على المفكر وتفكيره من خلال معايشته وتفاعله ودراسته لهذه الظروف[1].

لقد ارتبط العلم بهذه الحضارات، حيث قدمت كل حضارة إبداعات إنسانها في مجال العلوم، لتساهم في صُنع الحضارة الإنسانية وتطورها. ولكن «الفضل العظيم كان للإغريق في صياغة الأصول النظرية العقلانية للعلم، فضلاً من الفروض الخصيبة التي طرحها بعضهم خصوصاً الفلاسفة السابقين لسقراط»[2]. إضافة لدورهم في بلورة أسس البحث العلمي وإرساء أسس

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن الحضارات القديمة وإبداعاتها في مجال المعرفة والعلوم انظر: د. ياس خضير البياتي، الفكر الاجتماعي ـ من عصر الحكمة إلى عصر العلم، (ليبيا، الجامعة المفتوحة، 2000).

(2) د. فؤاد زكريا، التفكير العلمي، عالم المعرفة، الطبعة الثالثة (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1988) ص 137.

العقلانية، حيث انحسرت المباحث التجريبيّة وتمركزت إنجازات الإغريق في العقل النظري والعلوم الاستنباطية، أيّ في المنطق والرياضيات.

ولا بد من الاعتراف بأن الحضارة العربية الإسلامية شهدت تطوراً عميقاً في اتجاهات المعرفة الإنسانية باستعمال المنهج العلمي والبحث التجريبي، أيّ تميّزها بالنزعة العلمية والعقليّة وتأكيدها على احترام عقل الإنسان واجتهاده وإبداعاته، والدعوة إلى التأمل لمعرفة الحقائق، والتوفيق بين العقل والدين. مما جعلهم «المؤسسين الحقيقيين لمفهوم العالمية في المعرفة الإنسانية، وهي إحدى السمات البالغة الأهمية بالنسبة للعلم الحديث»[1].

المرحلة الثالثة: عصر العلم الحديث. ويمكن اعتبار بداية مرحلة العلم الحديث من القرن السادس عشر، حيث توالت إنجازات الفروع المختلفة لعلوم الحياة وصياغات رياضية لنظريات وفروض حيويّة وخاصة في مجال الفيزياء الحيوية والهندسة الوراثية، ودور الإحصاء وحساب الاحتمال في المجالات الحيوية، حيث اندرجت علوم الحياة في نسق العلم الحديث وتكاملت مع العلوم الفيزيوكيمائية في تشييده، وهذا بفضل امتثالها للنموذج الذي هيمن على حركة العلم الحديث وأكدته نظرية نيوتن، وفرضته كإطار للعلم وللعالم، أيّ النموذج الآلي الميكانيكي الحتمي، المتجسدة في نظرة رواد العلوم الحيوية باعتبار الجسم آلة ميكانيكية، المشتقة من النظرة الفيزيائية التي ترد كل ظواهر الحياة إلى مبدأ الفيزياء: المادة والحركة. ومن ثم يمكن رَد كل ظواهر الحياة بما فيها الإحساس والوعي والتفكير[2] إلى هذا القانون.

ويمكن أن تتمثل نقطة التحول في أن العلم في العصر الحديث، أو العلم الحديث قد أصبح نسقاً. حيث إن النسقيّة تعني إحكام البحث العلمي،

---

(1) جـ. جـ كراوثر، قصة العلم، مصدر سابق، ص 57.

(2) د. يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، عالم المعرفة، العدد 264 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2000) ص 95.

أيّ الاعتماد على أصول منهجية صارمة، ترتد في صورة خصائص منطقية دقيقة تحدّد لظاهرة العلم تخوماً واضحة[1].

وكان طبيعيّاً أن تتأثر الدراسات الإنسانية، خصوصاً علم النفس وعلم الاجتماع، بالفيزياء ومناهجها الرياضية وتطبيقاتها. وهذا ما جعل العالم الفرنسي أوجست كونت في القرن التاسع عشر يدعو إلى إنشاء الفيزياء الاجتماعية التي تدرس المجتمع وظواهره بمنهج العلم الحديث، حيث قسّم كونت الفيزياء الاجتماعية إلى قسمين هما: الديناميكية الاجتماعية التي تدرس المجتمعات في حركيتها وتقدمها، والإستاتيكا الاجتماعية التي تدرس المجتمعات في حالة ثباتها واستقرارها. إلاّ أنه عاد واستقر على مصطلح علم الاجتماع (Sociology) بدلاً من الفيزياء الاجتماعية لإيمانه بأن الرياضيات لا يمكن لها أن تصل بعلم الاجتماع إلى قوانين دقيقة وحتميّة بسبب طبيعة الظواهر الاجتماعية التي تميل إلى التعقيد الشديد، رغم إيمانه الكبير بأن الرياضيات تأتي على رأس نسق العلم. هذا التطور في العلوم الطبيعية إنعكس على علم الاجتماع وبالذات على تكوين النظرية الاجتماعية، حيث بدأت الملامح الأولى لظهور النظرية السوسيولوجية الوظيفية التي اتخذت من العلوم الطبيعية نقطة بدء لها تحاول أن تؤكد أن ظواهر الاجتماع تخضع لذات القوانين التي تحكم ظواهر العلوم الطبيعية، حيث توصلت الوظيفة إلى ذلك بإنجاز أمرين: أولهما تطبيق مناهج البحث المستخدمة في العلوم الطبيعية في دراسة كل مجالات الخبرة، وثانيهما توسيع نطاق النتائج التي انتهت إليها العلوم الطبيعية واتخاذها دلائل مادية لدراسة الظواهر الاجتماعية، ومعنى ذلك استخدام مفهومات العلوم ونظرياتها في دراسة الظواهر الإنسانية[2]. وهو ما

---

(1) المصدر السابق، ص 50.

(2) محمد عارف عثمان، المنهج الكيفي والمنهج الكمي في علم الاجتماع في ضوء نظرية التكامل لدراسة الظواهر الاجتماعية، رسالة دكتوراه (القاهرة: كلية الآداب ـ =

يعني بداية الاهتمام بالإثبات الأمبيريقي للقضايا النظرية، والإلتجاء إلى التجربة والبحث على أساس المنهج الاستقرائي.

ولا بد من القول، بأن علم الاجتماع، مثلما هي العلوم الاجتماعية الإنسانية لم يحقق بعد نسقاً علمياً متكاملاً من القوانين التفسيرية، يماثل ـ من حيث القوة المنطقية ـ أنساق القوانين التفسيرية في أقل فروع العلوم الطبيعيّة خطوة من التقدم، ذلك لأن قياس تقدم العلم مرتبط بمدى توغله في المرحلة التفسيرية ونجاحه فيها، حيث تبلغ المرحلة التفسيرية اكتمالها المنطقي في النظرية العامة أو البحتة، التي تعني الدافع المعتمد للنسبيّة العلمية... كما أن للعلم أربع مهام في دراسة الظاهرة وهي الوصف والتفسير والتنبؤ والسيطرة[1].

إن هذه المعرفة المتراكمة تشكل التراث الإنساني المعرفي، ومصدر التفكير، وأساليب طرق الحياة، فشكلت في بعض مراحل التفكير الإنساني سلطة اجتماعية أعاقت التفكير والتجديد وعمليات البحث العلمي، حيث غاب منطق الشك والتساؤل لصالح اليقين المطلق بالحقائق الموجودة. بينما شهدت فترات أخرى ظهور التفكير العلمي القائم على مرتكزات معرفية موضوعية لاكتشاف الحياة الاجتماعية.

وقد أدى هذا التوجه إلى ضرورة اعتماد البرهان العقلي القائم على المنطق، واكتشاف الإنسان لضرورة ربط المعرفة بالواقع، مما أفضى إلى أهمية البرهان الأمبيريقي على الواقع والمستمد منه كموضوع، حيث يقوم البرهان العقلي على افتراضات وعمليات منطقية تفحص وتؤكد الترابط بين المقولات من مسلمات ونتائج. أما البرهان الأمبريقي فيقوم على ملاحظة الواقع وبيان

= جامعة القاهرة، 1971). نقلاً عن د. على ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة، دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، الطبعة الثانية (القاهرة: دار المعارف، 1983) ص 206.

(1) د. يمنى طريف الخولي، مصدر سابق، ص 381 ـ 382.

الشواهد الواقعية التي تمثلها المعرفة، وبهذا يصبح الواقع بمكوناته، وما بينها من علاقات، الشاهد والمحك لخطأ المعرفة أو صحتها[1].

ويقرّر العالم براثويت في مؤلفه «التفسير العلمي» بأن وظيفة العلم هي «إقامة القوانين العامة التي تحكم اكتشاف الأحداث الواقعة أو المسائل التي يبحثها، ومن ثم تساعدنا على الربط بين ما توصلنا إلى معرفته من أحداث، كما تمكننا من التوصل إلى تنبؤات ثابتة تتعلق بتلك الأحداث التي لا تزال غير معروفة»[2].

فالمعرفة العلميّة تساهم في إيجاد الحلول للمشكلات المختلفة بقصد تحقيق المزيد من التقدم والرفاهية للمجتمع الإنساني. وهي تتميز بالملامح الأساسية الآتية[3]:

(1) ذات طابع نسبي: فالعلم لا يعرف الصدق أو الحقيقة المطلقة.

(2) ذات طابع موضوعي: بمعنى تمييزها بالدقة والتحديد المعتمد على القياس وعدم التأثر بالتحيز الذاتي للباحث.

(3) ذات طابع تراكمي: حيث يعتبر العلم أكثر الأنساق الفكرية إتاحة للتراكم، تبتكر المفاهيم الجديدة لكي تحل محل المفاهيم القديمة التي عجزت عن متابعة متغيرات الواقع المتنوعة.

(4) ذات طابع حتمي: بمعنى أن إدراكها للواقعة يتم من خلال التركيز على العلاقات السببيّة لمكوناتها. فالحتمية العلمية تبحث عادة عن مسببات

---

(1) إبراهيم عثمان، مقدمة في علم الاجتماع، (عمان: دار الشروق، 1999) ص 49 ـ 50.

(2) د. محمد علي محمد، البحث الاجتماعي ـ دراسة في طرائق البحث وأساليبه، (مصر: دار المعرفة الجامعية 1996) ص 14.

(3) د. معن خليل عمر، نحو نظرية عربية في علم الاجتماع، الطبعة الثانية، (عمان: مجدلاوي للنشر والتوزيع، 1992) ص 9.

الظاهرة في الطبيعة أياً كانت نوعيتها.

(5) تتصف المعرفة العلمية بأنها معرفة من الخارج، فهي تدرك الظاهرة من خلال مؤشراتها الخارجية المرئية. وقد نقل علم الاجتماع هذه الخاصية في العلوم الطبيعية.

علاقة العلم بالنظرية

أدى التطور العلمي، وخاصة في أعقاب الثورة الفرنسية، إلى ظهور اتجاهات نظرية عامة (المثالية، الوضعية، النفعية، التجريبية) التي تميزت أنساقها النظرية من حيث طبيعة إدراكها للواقع والإنسان. وقد ظهرت في هذه الفترة النظرية السوسيولوجية التي ارتبط بناؤها بعدّة أنساق حسب الظروف والاتجاهات المعرفية، حيث الارتباط بالأنساق الفلسفية تارة، وبالعلوم الطبيعية تارة أخرى، وكذلك الارتباط بالنزعة الإمبيريقية، إضافة إلى البحث عن تأسيس نظرية شاملة تيسر إدراك الواقع وفهمه وحمايته. ولا يمكن أن يكون علم بدون نظرية أو نظرية لا تعكس مجالاته الدقيقة أو العريضة. ولا توجد نظرية بدون بحوث تغذيها وتبني بها مقدماتها الأساسية، ولم يحصل أن قامت بحوث بدون إطار نظري تستند عليه في البرهنة أو الرفض[1].

وتأسيساً لتطور العلم والنظرية، يمكن القول: إن هناك علاقة مترابطة بين الاثنين تتجسد في أكثر من حقيقة علمية وهي:

(1) تقدم العلم، وتراكم المعرفة العلمية، ساعدا على إنضاج النظرية العلمية من ناحية الموضوع والمنهج.

(2) النظرية هي العلم، والعلم هو النظرية، وذلك بالنظر إلى أن أهدافهما

---

(1) المصدر السابق.

واحدة ومشتركة. ولا يمكن تصور نظرية حقيقية بدون تراث علمي وتراكم معرفي ترجع إليه لتبني معادلاتها الافتراضية وقضاياها وتصوراتها، وتختبرها في مواقف حقيقية أو تجريبية[1].

(3) إن من صفات النظرية العلمية تاريخية ظواهرها. فالعلم يدرس تفاعلات الأشياء أو بتعبير أدق هو يدرس تاريخية الواقع[2].

(4) العلم والنظرية كلاهما يبحثان عن حقيقة الواقع، وليس «هناك علم إلاّ إذا قام تكامل بين الفكرة والواقع»[3].

(5) النظرية اعتمدت في بنائها على اتباع المنهج العلمي، حيث اضطرت للانتقال من «المنهج الاستقرائي إلى المنهج الاستنباطي. مع أن النظرية العلمية ينبغي أن تكون في اتساق مع الوقائع»[4].

---

(1) د. علي الحوات، النظرية الاجتماعية ـ إتجاهات أساسيّة (مالطا: منشورات شركة ألجا، 1998).

(2) د. محمد أمين العالم، موسوعة الجيب الإشتراكي (القاهرة: دار الهلال، 1985) ص 77.

(3) جان نوارسيه، معايير الفكر العلمي، ترجمة فايز كم نفش (بيروت: منشورات عويدات، 1969) ص 174.

(4) د. محمد فتحي الشنيطي، المعرفة (القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، 1962) ص 29.

2 ـ مفهوم النظرية الاجتماعية

لم يكن نشوء النظرية بمعزل عن الواقع الاجتماعي والسياسي، فقد شهدت مراحل للتطور والبناء استندت على تراكم معرفي ساعد على إنضاج النظرية الاجتماعية، وجعلها تميل إلى قدر من العلميّة، بمعنى أنها لم تصل بعد إلى مرحلة من التفسير المطلق لقوانين الحياة، ذلك لأن إحدى نقاط الضعف الرئيسية في الكثير من القضايا النظرية لعلم الاجتماع ترجع إلى أنها كلما توصلت إلى قدر أكبر من عموميّة الموضوع، أصبحت مفتقدة إلى خصوصية التنبؤ.

وهناك الكثير من العوامل التي تفسر سبب التزام الكثير من النظريات الاجتماعية بالمعايير النموذجية للعلم أبرزها[1]:

(1) أن بعض النظريات الاجتماعية يشبه النظريات التحليلية التي لا يمكن اختبارها أمبيريقياً.

(2) أن الكثير من النظريات الاجتماعية ليست قضايا شاملة، أو قضايا تعبّر عن وقائع.

(3) أن الكثير من النظريات الاجتماعية لا يمكن اختبارها أمبريقياً أو أنها لا تتنبأ إلاّ بأشياء غامضة جداً لا تتيح لها الفرصة لاختبارها.

وهذا يعني أن النظريات الاجتماعية تفتقد إلى بعض معايير العلم مقارنة

---

(1) د. محمد عاطف غيث، الموقف النظري في علم الاجتماع المعاصر، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية 1980) ص 14.

بالنظرية الطبيعية، فلم يعد صدق كل النظريات يتوقف على تحقيقها تحقيقاً تجريبياً فعلياً وإنما «يمكن تحقيق بعضها تحقيقاً تجريبياً بطريق غير مباشر، ولكن بعضها الآخر لا يمكن تحقيقه تجريبياً حتى من حيث المبدأ»[1].

النماذج الشاملة للنظريات

وللتوضيح، هناك أربعة نماذج شاملة للنظريات[2]:

النموذج الأول: النظريات التحليلية، وهي تتكون من مجموعة قضايا بديهيّة تعتبر صادقة، ويمكن اشتقاق قضايا أخرى منها. وهي تشبه نظريات المنطق والرياضيات.

النموذج الثاني: النظرية العلميّة، وتعتبر شاملة لأنها تقدّر بعض الأشياء المتعلقة بالظروف التي تقع فيها حادثة معينة، وهي قضيّة أمبريقيّة تتصف بالشمول.

النموذج الثالث: النظريات العلمية الأمبيريقية، ويمكن استنباط قضايا منها تعالج حوادث معينة تخضع للمراجعة عن طريق الملاحظة، وهذا الاستنباط والمراجعة يكونان بمثابة اختبار للنظرية التي ينبغي أن تكون أمبيريقيّة إذا كانت قابلة للاختبار، كما يجب أن تكون النظرية العلميّة سببيّة.

النموذج الرابع: النظرية الميتافيزيقية، وهي غير قابلة للاختبار حيث ترتكز على التقييم العقلي، وهذا لا يقلّل من قيمتها في تطوير ونمو العلم.

واستناداً إلى المعلومات السابقة فإن النظرية تعتبر أهم وحدات العلم

---

(1) د. محمود فهمي زيدان، الاستقراء والمنهج العلمي، الطبعة الأولى، (بيروت: مكتبة الجامعة العربية 1966) ص 140.

(2) د. محمد عاطف غيث، الموقف النظري في علم الاجتماع، مصدر سابق، ص 12.

حيث إنه بمجرد بناء النظرية واستكمالها عن طريق العلم، يمكن تحقيق التقدم والتراكم المعرفي، إضافة إلى قدرة العلم على التحكم في الظواهر الاجتماعية لاستنباط الحقائق العلمية، واستثمارها في حل المشكلات.

النظرية الاجتماعية: المفهوم والتعريف

يمكن القول بأن النظرية ليست ثابتة، فقد تكتشف من خلال الأبحاث العلمية، ويمكن تعديلها أو صياغة تفسيرات جديدة للظاهرة وذلك لسببين: الأول، هو أن النظرية صورة مصغرة للواقع مفسرة لأجزائه وشخوصه ومؤثراته وارتباطاته. والثاني، هو أن الواقع متغير دائماً، وهذا يعني أن أيّ تغيير في الحقائق يؤدي إلى تغيير في نصوص وتقيمات النظرية. لذلك فإن نصوص النظرية ينبغي أن تكون مرنة وقابلة للتعديل والتطوير والتنقيح حتى تظل النظرية موجهة للبحث الأمبيريقي[1].

إن النظرية الاجتماعية ينبغي أن تستقرىء وتتنبأ بأحداث المستقبل وظواهره الاجتماعية مثلما تقوم بتشخيص وتفسير أسباب الأحداث الماضية للظواهر الاجتماعية. وهناك جدل واسع بين علماء الاجتماع حول «علمية» علم الاجتماع وقدرته على تأسيس نظرية اجتماعية قادرة على التحكم بالظاهرة الاجتماعية، وهذا ما يفسر التناقض في الجدل الدائر حول «ما إذا كان علم الاجتماع علماً، أو أن مناهجه يتعين أن تقوم على الفهم التعاطفي أو التجربة المضبوطة، وهل لديه القدرة على بناء النظرية أو يكفي الاندماج الكامل في الوقائع، وهل يختلط على الاجتماع بالمسائل السياسية أم أنه متحرّر من القيمة»[2].

---

(1) د. محمد على محمد، علم اجتماع التنظيم ـ مدخل للتراث والمشكلات، الجزء الأول (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية 1979) ص 262.

(2) أليكس إنكلز، مقدمة في علم الاجتماع، ترجمة د. محمد الجوهري وآخرين، (القاهرة: دار المعارف 1977) ص 173.

وتأسيساً على ذلك، فإن النظرية الاجتماعية، بمقاييس العلم، تعتبر علمية لأنها أساساً موضوع علمي، حيث إنها تستخدم الطريقة الاستقرائية التي تعتمد على الملاحظة والمقارنة والتصنيف والاستدلال والتعميم، أي تتخذ نفس الخطوات الموجودة في العلوم التي تقوم على تقرير نظرية ترتكز على المعلومات التجريبيّة، حيث يمكن اختبار مدى صحتها في ضوء ما تحمله من فروض ومقررات ومعلومات وحقائق[1].

فالنظرية هي الأداة المحققة لأهداف العلم لأنها:

1 ـ تتسم بالوحدة والاكتمال وتقوم بدور أساسي في العلم.

2 ـ النظرية تضم جوانب مختلفة للبناء المعرفي.

3 ـ تفسر الأحداث والعلاقات المشاهدة في الواقع.

4 ـ تساعد على التنبؤ في ظروف لم نلمسها من قبل.

5 ـ النظرية تضع لنا دائماً أساس الاختبار[2].

وعموماً، فإن النظرية الاجتماعية الحديثة تتميز بأنها ترتكز على فكرة عامة مؤداها أن الحياة الاجتماعية يمكن ردها إلى قوانين علميّة، تسمح لنا بالتنبؤ بنتائجها متى توفرت الظروف المهنية لتحقيق مقدماتها وأسبابها وعواملها. كما أن النظرية الاجتماعيّة «لا تتكلم فقط عن العمليات والصراعات والمشكلات الاجتماعية، بل هي كذلك جزء من تلك العمليات والصراعات والمشكلات»[3]، أي أنها القادرة على تحديد العمليات السببيّة الفاعلة

---

(1) د. أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعي ـ دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعي (بيروت: دار النهضة العربيّة 1981) ص 16.

(2) د. محمد علي محمد، البحث العلمي، مصدر سابق، ص 14.

(3) أبان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، عالم المعرفة، العدد 244 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب 1999) ص 39.

والمواقف التي تعمل فيها تلك الآليات السببية. وبمعنى آخر فإن النظرية ـ برأي العالم تيماشيف ـ تمثل «أعلى درجات المعرفة»[1]. لأنها الوسيلة لإقامة المعرفة عن العالم الاجتماعي.

وعلى الرغم من اختلاف الرؤية في تحليل مفهوم النظرية، فإن هناك اتفاقاً عاماً بأن النظرية الاجتماعية هي محاولة علمية للسيطرة على الظواهر الاجتماعية من خلال تصورات منطقية.

تعاريف النظرية

يمكن إيجاز أبرز التعاريف والمفاهيم للنظرية الاجتماعية من خلال علماء الغرب والشرق.

(1) تعريف روبرت ميرتون:

مجموعة من التصورات المترابطة منطقياً، تلك التصورات المحدودة والمتواضعة، وليست الشاملة المتضمنة كل شيء[2].

(2) تعريف تالكوت بارسونز:

النظرية تتصل بكيان من المفاهيم المترابطة منطقياً، وهذا لا ينفي وجود مجموعة من القضايا العامة ذات العلاقات المنطقية التي ترتبط في ما بينها، ويمكن أن تؤلف كياناً نظرياً[3].

(3) تعريف رالف دارندرف

مجموعة قوانين منطقية مستخرجة من الواقع الاجتماعي يستخلص منها

---

(1) Timasheff, Ns: Sociological Theory, N. Y, 1955. p. 9.

(2) د. علي ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة، الطبعة الثالثة، مصدر سابق، ص 56.

(3) د. علي ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة، الطبعة الثانية، ص 38 .

استنتاجات دقيقة لا تعكس خصوصية متميزة تتصف بها مجموعة بشرية صغيرة لها فاعلية في تفسير وشرح سلوك وتفكير الناس الذي بلوره واقعهم الحقيقي[1].

(4) تعريف براث وات:

تشتمل على مجموعة من الفروض التي تكون نسقاً استنباطياً، بمعنى أنها تنتظم في ترتيب متتابع فيه بعض الفروض اللاحقة تلحق بعض الفروض المتقدمة[2].

(5) تعريف ديفد دريسلر:

مجموعة ملاحظات دقيقة مترابطة بشكل منسق متضمنة تفسير وتحليل علاقة الأحداث الاجتماعية في ما بينها، وعاكسة بالوقت ذاته قدرة المنظر في التنبؤ الاجتماعي[3].

(6) تعريف أرنولد روس:

بناء متكامل، يضم مجموعة تعريفات، وافتراضات، وقضايا عامة تتعلق بظاهرة معينة، بحيث يمكن أن تستنبط منها منطقياً مجموعة من الفروض القابلة للاختبار[4].

(7) د. محمد عاطف غيث:

مجموعة من مبادىء وتعريفات مترابطة تفيد (تصورياً) في تنظيم جوانب مختارة من العالم الأمبيريقي على نحو منسق ومنظم، إذا كان هيكلها مكوناً

---

(1) Dahrendorf, Ralf, Essays in the theory of Society. Routledge and Kegan Paul, London, 1968, p. 93.

(2) د. علي عبد الرزاق جلبي، قضايا علم الاجتماع المعاصر، (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر 1984) ص 151.

(3) د. معن خليل عمر، نظريات معاصرة في علم الاجتماع (عمان: دار الشروق 1997) ص 21.

(4) د. محمد علي محمد، البحث الاجتماعي، مصدر سابق، ص 24.

من قضايا مترابطة منطقياً وقابلة للتحقيق الإمبيريقي[1].

أما تعريفنا للنظرية الاجتماعية فيؤكد على أنها «تمثل تراكماً مترابطاً ومفاهيم وتصورات وقوانين تأخذ شكلاً منسقاً ومرتباً بقصد تفسير الأحداث الاجتماعية وبلورة قوانين منطقيّة لها القدرة على التعبير عن الواقع الاجتماعي والتنبؤ بالمستقبل».

والملاحظ أن هناك اختلافاً واتفاقاً على تحديد تعريف موحد للنظرية الاجتماعية. فهناك اتفاق على ضرورة وجود ثلاثة عناصر أساسيّة لبناء النظرية الاجتماعية هي: المفاهيم والقضايا والبناء المنطقي. بينما يوجد اختلاف واضح في تحديد النظرية، فهي أحياناً «مجموعة قوانين» و«مجموعة مفاهيم» و«مجموعة ملاحظات» و«افتراضات» و«تصورات»... الخ، مما يعكس اختلافاً في الرؤية والتحليل، رغم أنه لم يشكل عائقاً نظرياً في تطوير النظرية بقدر ما يعكس حالة إيجابية في التنوع وإثراء المعرفة لها. وبعدها عن التقييد بصياغات ثابتة لاتتناسب مع الواقع الاجتماعي المتغيّر.

ومع ذلك، فإن النظرية ينبغي أن تتوافر فيها الشروط الآتية:

1 - ينبغي أن تكون المفهومات التي تعبّر عن القضايا محدودة بدقة.

2 - يجب أن تتفق القضايا الواحدة مع الأخرى.

3 - أن توضع بشكل يجعل من الممكن اشتقاق التعميمات القائمة اشتقاقاً استنباطياً.

4 - أن تكون هذه القضايا خصبة ومثمرة، تستكشف الطريق لملاحظات أبعد مدىً، وتعميمات تنمي مجال المعرفة[2].

---

(1) د. محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979) ص 486.

(2) فهمي سليم الغزوي وآخرين، المدخل إلى علم الاجتماع، (عمان: دار الشروق 1992) ص 49 - 50.

3 ـ بناء النظرية الاجتماعيّة

من الضروري وجود ثلاثة عناصر أساسيّة بالنسبة لبناء النظرية الاجتماعية وهي: المفاهيم والقضايا والبناء المنطقي، وهي عناصر أساسيّة في اكتمال النظرة من حيث البناء والوظيفة.

أولاً: المفاهيم في علم الاجتماع هي «رموز لفظية مميزة تعطي لأفكار معمّمة ثم تجريدها عن الملاحظة العلمية للمجتمع»[1]. وأهمية المفاهيم الاجتماعية بالنسبة للبحث الاجتماعي ـ برأي العالم بلومر ـ كأهمية سكة الحديد للقاطرة[2].

وقد ميز «ترنر» بين ثلاثة أنواع من المفاهيم التي تتضمنها النظرية الاجتماعية وهي ما يأتي[3]:

1 ـ مفاهيم متضمنة نصوصاً وأفكاراً مجردة تشير إلى صفات عامة للظاهرة الخاضعة للبحث ولا تعكس زماناً أو مكاناً معينين، ولا ترتبط بأيّ محيط اجتماعي معين. مثال على ذلك، التفاعل الاجتماعي أو الجماعة المرجعيّة، حيث لا تعكس هذه التحديدات زمناً معيناً أو مكاناً معيناً، ولا تعكس محيطاً اجتماعياً خاصاً بل هي مجرد تحديدات لا غير.

2 ـ مفاهيم محدّدة في زمان معين أيّ يتم تحديد المفهوم بواسطة فترة زمنية

---

(1) د. علي ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة، الطبعة الثالثة، مصدر سابق، ص 38.

(2) د. معن خليل عمر، الموضوعيّة والتحليل في البحث الاجتماعي، الطبعة الأولى (بيروت: دار الآفاق الجديدة 1983) ص 32.

(3) د. معن خليل عمر، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، مصدر سابق، ص 43 ـ 44.

محدّدة ومكان جغرافي معلوم الأبعاد، وعاكساً محيطاً اجتماعياً معيناً. مثل نظام تقسيم العمل في المجتمع الصناعي أو الحراك الاجتماعي في المجتمع الحضري الذي يكون عمودياً، بينما الحراك الاجتماعي في المجتمع الريفي يكون أفقياً.

3 ـ مفاهيم إجرائية، أيّ تحديدات إجرائية لبعض مكونات إجزاء الظاهرة الاجتماعية الخاضعة للبحث أو تكون مستخرجة من واقعها. وهذا النوع من المفاهيم يساعد على توضيح ما تنطوي عليه المفاهيم المجردة من الأفكار المصاغة بشكل منطقي.

وبشكل عام يمكن القول، رغم اختلاف العلماء بالتسميات، واتفاقهم على أنواع المفاهيم، فإن المفاهيم تقسم إلى نوعين:

الأول نظري منطقي، والثاني إجرائي واقعي مستنبط من واقع الظاهرة. أما أهم وظائف المفاهيم فهي كثيرة أبرزها ما يأتي:

أ ـ تزيل الغموض في بعض النظريات من خلال توضيح المعطيات الاجتماعية التي تندرج تحت المفهوم.

ب ـ إلغاء التناقضات الظاهرية في المعطيات الأمبيريقية.

جـ ـ تحديد المؤشرات التي يمكن ملاحظتها بالنسبة للمعطيات الاجتماعية التي يهتم بها البحث الأمبيريقي.

والملاحظ أن المفهوم يتغيّر زمانياً ومكانياً حسب الواقع الاجتماعي ومتغيراته الاجتماعية والعقائدية والسياسية، فمفهوم الأخلاق في مجتمع شرقي غيره في مجتمع غربي.

ثانياً: القضايا، حيث تشير إلى مشروع يضم عدّة مقترحات تتطلب البرهنة عليها لأنها استخرجت من الواقع بواسطة الملاحظة. مثال على ذلك:

تبلور التحولات الاجتماعية من التغيرات الاقتصادية والسياسية (هذه قضية عامة) تحتاج إلى براهين وأسانيد ميدانية من واقع الحياة الاجتماعية مفصلة على الجوانب الأسرية والتربوية والثقافية والدينية، فإذا جرت التحولات الاجتماعية في هذه المجالات يمكن القول على هذه الحالة بأنها تمثل «قضية نظرية»[1].

ثالثاً: البناء المنطقي، وهو يشير إلى الهيكل البنائي الذي تنتظم فيه قضايا النسق النظري. فمنها ما يعتبر قضايا مقدمات أو توجيهات نظرية عامة، أو ما يعتبر قضايا من المستوى الأدنى. وحتى تصبح النظرية العلمية أكثر نضجاً فإنها تميل لأن تشكل نسقاً مغلقاً ومنسقاً، حيث يساعد امتلاك النظرية لبناء منطقي منسق على اشتقاق الفروض التي من غير المحتمل أن يتناقض بعضها مع البعض الآخر[2].

الإستراتيجيات الرئيسية لبناء النظرية الاجتماعية[3]

من الطبيعي أن يكون هناك اختلاف في استراتيجيات بناء النظرية الاجتماعية لأسباب تتعلق بعوامل عديدة، منها تاريخية ترتبط بمرحلة التأسيس، ومن ثم عملية التراكم المعرفي. ومنها ما يعود إلى بلورة النظرية الاجتماعية من خلال التفاعل بين مختلف أبنيتها المتباينة، وبين الواقع الاجتماعي ومتغيراته.

ولذلك يحدّد د. علي ليلة ثلاث استراتيجيات أساسية هي:

---

(1) المصدر السابق، ص 30.
(2) د. على ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة، الطبعة الثانية، مصدر سابق، ص 40.
(3) إعتمدنا على هذا المبحث من د. علي ليلة، المصدر السابق، ص 55 ـ 66.

أولاً: إستراتيجيته بناء الأنساق النظرية المغلقة. ويمكن إيجاز أبرز اتجاهاتها بالنقاط الآتية:

(1) سادت هذه الاستراتيجية المرحلة الأولى لنشأة النظرية الاجتماعيّة التي تضمنت أشكالاً نظرية متعدّدة: فلسفية وقضايا العلوم الأخرى.

(2) تميزت هذه الأنساق النظرية بمحاولتها تفسير النسق الاجتماعي بالنظر إلى فرضيات من خارجه، واستخدمت معطيات النسق الاجتماعي الواقعي انتقائياً في إثباتها.

(3) هنالك نوعان من الأنساق النظرية المغلقة: الأولى، أنساق نظرية تأملية، وهي أبنية افتراضية اشتقت من الاتجاهات الفلسفية التي عايشت نشأة علم الاجتماع كالمثالية والوضعية والنفعية. والثانية، أنساق نظرية عامليّة، حيث اشتقت أبنيتها من الفترة التالية لنشأة علم الاجتماع، أيّ أنها أكدت على العوامل الجغرافية أو الاجتماعية أو البيولوجية أو الاقتصادية أو السايكولوجية في تفسير الظواهر الاجتماعية، أيّ بمعنى تفسيرها بعوامل خارجة عنها وليست من داخلها أو متفاعلة معها.

ثانياً: إستراتيجية بناء النظرية الشاملة.

ويمكن تلخيص اتجاهاتها بالآتي:

(1) يعتبر تالكوت بارسونز أبرز من تبنى هذه الاستراتيجيّة في بناء النظرية الاجتماعية الشاملة مستنداً إلى حقائق أساسية وهي أن النظرية لا بد أن تأخذ مفهوم النسق البنائي الوظيفي إطاراً منطقياً لتنظيم المعطيات التي يحويها الواقع الاجتماعي، إضافة إلى اعتماده على نظرية «الفعل الاجتماعي» المستندة على نسق الثقافة ونسق الشخصية والنسق الاجتماعي.

(2) النظرة الشاملة عند بارسونز، تعتمد على المنطق التدريجي في تأسيسها،

فهي لا تتأسس لديه دفعة واحدة.

(3) يتخذ بارسونز قضايا النظريات الخاصة للعلوم (الأنثروبولوجيا وعلم النفس والاجتماع) معطيات تركيبيّة لتأسيس نظريته الشاملة، وبمعنى آخر يعتقد بأن تأسيس المواضيع المتنامية للنظرية الشاملة يتم من خلال التفاعل المباشر والفعّال بين هذه النظريات الخاصة من ناحية وبين البحث الأمبيريقي من ناحية أخرى.

ثالثاً: إستراتيجية بناء النظرية المتوسطة المدى

ويمكن تلخيص اتجاهاتها بالنقاط الآتية:

(1) يعتبر روبرت ميرتون أبرز من يمثلها، حيث يرى ضرورة تأسيس النظريات الخاصة أولاً إلى النظرية العامة للعلم. بمعنى أنه يقرّر أهمية أن تكون النظرية المتوسطة المدى والخاصة هي التي تشكل نقطة البدء الأساسيّة. أيّ التركيز على جزئية النسق كمدخل لتحليله، وليست كليته.

(2) يستند ميرتون في بنائه النظري على عمليتي التأسيس والاشتقاق، حيث تتأسس القضايا عن علاقات الواقع ومعطياته، ثم يعاد توجيهها نحو قيادة البحث الأمبيريقي في نطاق مجالات خاصة بالنظر إلى كونها فروضاً اشتقت من قضايا جردت عن ذات الواقع أو واقع مماثل.

(3) المشكلة، عند ميرتون، تتمثل في قيام نظرية لا بد أن تكون ذات صلة بالاتجاهات الأمبيريقيّة التي تدعمها، وذلك لأنه يعتقد بأن معضلة علم الاجتماع هي الهوة التي تحدث الآن داخل العلم بين النظرية ومعطيات الواقع، إذ غالباً ما تكون الأفكار أكثر نمواً وتطوراً في سرعتها عن قدر البحث الإمبيريقي اللازم لاختبار هذه الأفكار وتوضيحها.

ولا بد من الاعتراف، بأن النظرية الاجتماعيّة المعاصرة «لم تصل بعد

إلى مرحلة الاكتمال في بنائها، وتعيش أزمة كأحد إفرازات هذا العصر المتصف بالتغيير السريع. وهذا الارتباط بين أزمة النظرية الاجتماعية وبين أزمة التطور الاجتماعي ليست من النوع الميكانيكي وإنما هو من النوع الطبيعي الخاضع لمؤثرات خارجية وداخلية في آن واحد»[1].

(1) د. سمير أيوب، تأثيرات الأيديولوجية في علم الاجتماع (بيروت: معهد الإنماء العربي 1983) ص 278.

4 ـ أهداف ووظائف النظرية الاجتماعيّة

يحدّد العالم جانثان ترنر أهداف النظرية الإجتماعية على النحو الآتي:

(1) تصنيف وتنظيم الأحداث الاجتماعيّة بأسلوب متسلسل بحيث تقترب من تكوين رؤية واضحة المعالم.

(2) تفسير أسباب الأحداث الاجتماعية لكي تمنح قدرة على تنبؤ الأحداث المستقبليّة وكيفيّة وقوعها.

(3) نستطيع أن نقدم معنىً دقيقاً حول وقوع الأحداث، بالذات حول كيفيّة وقوعها وأسباب حدوثها[1].

(4) النظرية الاجتماعية صعبة عسيرة على الفهم، ولذلك من أهدافها تناول مشكلات الإنسان التي هي عصية على الحل[2].

(5) النظرية تهدف إلى صنع حقائق الحياة الاجتماعيّة الشاملة، وتضع بشكل واضح جميع القضايا بإطار عام يساعدنا على تحديد السبب والنتيجة والشرح والتنبؤ[3].

وظائف النظرية الاجتماعيّة

ويمكن تحديدها على النحو الآتي:

---

(1) د. معن خليل عمر، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، مصدر سابق، ص 23.

(2) أيان كريب، مصدر سابق، ص 37.

(3) د. فهمي سليم الغزوي، مصدر سابق، ص 50.

(1) إعطاء معنى لنتائج البحث من خلال جعلها ممكنة الاستيعاب وليس للإنعزال أو الإنفصال عن الواقع، وبالتالي فهي تتضمن الاحتمالات أو قضايا مجردة.

(2) إنها تثري البحث بواسطة طرح إرهاصات مهمة للاستقصاء المستقبلي، ولذا فإن العلاقة بين البحث والنظرية تكون تبادليّة، فالبحث يمول النظرية بمعلومات جديدة نابعة من الواقع.

(3) تقدم النظرية القاعدة المنطقية للتنبؤ الاجتماعي، وهذا هو أحد أهداف علم الإجتماع، أيّ أنها تساعد الباحث الاجتماعي على معرفة مستقبل العلاقات الاجتماعيّة وآثارها.

(4) تستطيع النظرية توضيح وتفسير الاختلافات والتباينات في بعض المفاهيم والتعاريف لبعض أنماط السلوك الاجتماعي من خلال تصنيفها حسب الصفات التي اتفقت عليها أو التي اختلفت حولها أيضاً.

(5) تعتبر المصدر الرئيسي لصياغة الفرضيات وأحد مكونات الإطار المرجعي لتفسير نتائج البحوث والدراسات[1].

(6) يعتبر وصف الواقع من الوظائف الهامة للنظرية في إطار دراسة النسق الواقعي، ولذلك تلجأ النظرية إلى استخدام وسائلها المتمثلة في المفاهيم والفروض. ويتم استخدام النظرية في عملية الوصف بالنظر إلى مستويين: بنائي، حيث يتم الوصف بالنظر إلى بناء الأنساق، وتصوري، حيث تشكل عناصره إطاراً ملائماً لوصف النسق الواقعي[2].

---

(1) د. معن خليل عمر، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، مصدر سابق، ص 23 ـ 24.

(2) د. علي ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة، الطبعة الثانية، مصدر سابق، ص 67.

(7) تعمل النظرية على تحفيز العقل أو الفكر العلمي على خلق وإبداع تفسيرات جديدة لمشكلات أو تعقيدات خلقتها المشاهدة والتجربة في الواقع[1].

(1) د. علي الحوات، النظرية الاجتماعية، مصدر سابق، ص 39.

5 ـ خلاصة ونتائج

حاول هذا الفصل تحليل أبعاد النظرية الاجتماعية من حيث الأهداف والوظائف والمفهوم والبناء، ومن سياق هذا التحليل يمكن إبراز الخلاصة التالية:

أولاً: هناك علاقة جدليّة بين النظرية والمعرفة العلميّة التي هي جزء أساسي من ثقافة المجتمع. ولا يمكن تصور نظرية حقيقية بدون تراث علمي وتراكم معرفي. فالعلم والنظرية كلاهما يبحثان عن حقيقة الواقع. وقد أدى تقدم العلم، وتراكم المعرفة العلمية إلى إنضاج النظرية العلمية من ناحية الموضوع والمنهج.

ثانياً: التراكم المعرفي عبر المراحل الحضارية هو الذي ساعد على صياغة الأصول النظرية العقلانية للعلم، وبلورة أسس البحث العلمي وإرساء أسسه العقلانية. وربما كانت فترة مرحلة العلم الحديث البداية الحقيقيّة للتفكير العلمي، حيث تحول العلم إلى نسق، بمعنى اعتماد البحث العلمي على أصول منهجية صارمة، وهذا انعكس على علم الاجتماع وبالذات على تكوين النظرية الاجتماعية وتطورها.

ثالثاً: هناك أربعة نماذج شاملة للنظريات وهي:

1 ـ النظريات التحليليّة، وهي تشبه نظريات المنطق والرياضيات.

2 ـ النظريات العلمية، وهي قضية أمبيريقية تتصف بالشمول.

3 ـ النظريات العلميّة الأمبيريقية، وهي قضايا تخضع للمراجعة عن طريق الملاحظة وهذا الاستنباط والمراجعة يكونان بمثابة اختبار للنظرية.

4 ـ النظرية الميتافيزيقية، وهي قابلة للاختبار، حيث ترتكز على التقيم العلمي.

رابعاً: يمكن تحديد النظرية الاجتماعية بأنها تمثل تراكماً مترابطاً لمفاهيم وتصورات تأخذ شكلاً منسقاً ومرتباً بقصد تفسير الأحداث الاجتماعية من أجل بلورة قوانين منطقية، لها القدرة على التعبير عن الواقع الاجتماعي والتنبؤ بالمستقبل.

وهناك اختلاف واتفاق حول تحديد مفهوم النظرية الاجتماعية:

1 ـ الإختلاف المرتبط باستعمال مفاهيم ومصطلحات في تعريف النظرية الاجتماعية، فهي أحياناً «مجموعة قوانين» و«مجموعة مفاهيم» و«مجموعة ملاحظات» و«تصورات»... الخ.

2 ـ الاتفاق، وهو اتفاق جميع علماء الاجتماع على ضرورة وجود ثلاثة عناصر أساسية لبناء النظرية الاجتماعية وهي: المفاهيم والقضايا والبناء المنطقي.

خامساً: النظرية الاجتماعية تتباين في عدد من الأبعاد: مستوى الشكل، التفسير، الأيديولوجيا، الموضوعية، ونوع التفسير (تفسير على مستوى الوحدة الكبيرة أو على مستوى الوحدة الصغيرة)، ومحور الاهتمام (البناء والعملية)، والعوامل المستخدمة في التفسير (العوامل الطبيعية، البيولوجية أو العوامل الاجتماعية). وتتصف أغلب النظريات الاجتماعية بأنها منطقية لا صورية ووصفية وحدسية واستنباطية، وتنحو إلى الأيديولوجيا، إلاّ أنها تتباين في المستوى (وحدة صغيرة أو وحدة كبيرة)، والعوامل المستخدمة في التفسير (عوامل طبيعية أو بيولوجية أو اجتماعية)، ومحور اهتمامها (البناء الاجتماعي أو العملية).

سادساً: هناك ثلاث استراتيجيات أساسية للنظرية الاجتماعية وهي:

1 - إستراتيجية بناء الأنساق النظرية المغلقة، حيث فسرت النسق الاجتماعي بالنظر إلى فرضيات من خارجه. وهناك نوعان من الأنساق المغلقة: الأولى أنساق نظرية تأمليّة اشتقت أبنيتها من الاتجاهات الفلسفية (المثالية، الوضعية والنفعية)، والثانية أنساق نظرية عامليّة اشتقت أبنيتها من الفترة التالية لنشأة علم الاجتماع، أي تفسير الظواهر الاجتماعية من خارجها وليست من داخلها.

2 - إستراتيجية بناء النظرية الشاملة، حيث اتخذت الفكرة البارسونيّة (تالكوت بارسونز) التي تؤكد على أن النظرية لا بد أن تأخذ مفهوم النسق البنائي الوظيفي إطاراً منطقياً لتفسير الواقع الاجتماعي وظواهره.

3 - إستراتيجية بناء النظرية المتوسطة المدى، وتعتمد هذه الاستراتيجية على التركيز على جزئية النسق كمدخل لتحليلهِ، أيّ بمفهوم العالم روبرت ميرتون، ضرورة تأسيس النظريات الخاصة أولاً إلى النظرية العامة للعلم.

سابعاً: إن للنظرية الاجتماعية عدّة وظائف أساسيّة، وهي جزء مهم في عملية بناء النظرية الاجتماعية أبرزها:

1 - تثري البحث بواسطة طرح إرهاصات مهمة للاستقصاء المستقبلي.

2 - تقدم النظرية القاعدة المنطقية للتنبؤ الاجتماعي.

3 - توضيح وتفسير الاختلافات والتباينات في بعض المفاهيم والتعاريف.

4 - تعتبر المصدر الرئيسي لصياغة الفرضيات وأحد مكونات الإطار المرجعي لتفسير البحوث.

ثامناً: النتائج المستخلصة:

1 - إن بعض النظريات الاجتماعية يشبه النظريات التحليلية التي لا يمكن اختبارها أمبيريقياً.

2 ـ إن الكثير من النظريات الاجتماعية ليست قضايا شاملة أو قضايا تعبر عن وقائع.

3 ـ إن الكثير من النظريات الاجتماعية لا يمكن اختبارها أمبريقياً أو أنها لا تتنبأ إلاّ بأشياء غامضة جداً لا تتيح لها الفرصة لاختبارها.

4 ـ إن النظرية الاجتماعية المعاصرة لم تصل بعد إلى مرحلة الاكتمال في بنائها، وتعيش أزمة كأحد إفرازات هذا العصر المتصف بالتغير السريع.

5 ـ عدم تشابه النظريات الاجتماعية من ناحية مضامينها وأهدافها ووظائفها بسبب ارتباطها بالأيديولوجيات التي تعكس مصالحها ووجودها.

6 ـ إستحالة وجود نظرية شاملة تستطيع أن تفسر جميع مناحي الحياة، وخصوصاً تفسير مكونين أساسيين من مكوناتها وهما: البنية والفعل.

نماذج أسئلة الفصل الأول

س1 : يمكن القول بأن المعرفة العلميّة ساهمت بشكل واضح في تأسيس النظرية. وضح العلاقة بين المعرفة العلميّة والنظرية، وتأثيرها على علم الا جتماع.

س2 : لعبت الحضارات الإنسانية دوراً واضحاً في بلورة النظرية الاجتماعية من خلال علومها ومناهجها. أذكر مراحل العلم، وتأثيرو على النظرية الاجتماعيّة وتطورها.

س3 : هناك الكثير من العوامل التي تفسر سبب عدم التزام الكثير من النظريات الاجتماعية بالمعايير النموذجية للعلم. حدّدها بنقاط مركزة.

س4 : هناك أربع نماذج شاملة للنظريات. عدّدها واشرحها بالتفصيل.

س5 : أكتب تعريفين للنظرية الاجتماعية، موضحاً الاختلاف والاتفاق حول تحديد تعريف موحد لها.

س6 : أكتب في الموضوعات الآتية:

1 ـ المفاهيم.

2 ـ القضايا.

3 ـ البناء المنطقي.

س7 : أوجز بنقاط الاستراتيجيات الرئيسية لبناء النظرية الاجتماعيّة.

س8 : أذكر أهداف النظرية الاجتماعية.

س9 : للنظرية الاجتماعية وظائف أساسيّة. أذكرها بنقاط.

س10 : ما هي النتائج المستخلصة التي خرجت بها من قراءتك للفصل الأول حول مفهوم النظرية ومكوناتها وبنائها النظري ووظائفها؟